كالحجارة أو أشدّ قسوة مالايظهر قبل ذلک، فعند سماع الايات يستحكم لكلّ من القبيلتين ما هو مركوز فى جبلّته من الصفات ـ إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ.

كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قد جائكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه و من عمى فعليها و ما أنا عليكم بحفيظ﴾(الأنعام(۶): ۱۰۴)و قوله تعالى: ﴿و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فانّما يهتدى لنفسه و من ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين﴾(النمل(۲۷): ۹۲)فانّ فيها اشارة الى نور القرآن يظهر و يكشف جوهر الهداية و الضلالة فى معدن قلب الانسان السعيد والشقى، كما يظهر و يكشف ضوء الشمس الذهب و الحديد فى المعادن.

و كذا قوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً و يهدى به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين﴾(البقرة(۲): ۲۶) و آيات كثيرة فى هذا المعنى.

و قال عليه و آله الصلوة و السلام: «الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة».[۱]

المقالة السابعة عشرة
فى معنى قوله سبحانه: ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾

و فيه معارج:

المعراج الأوّل
فى تحقيق الآية

إنّ الله سبحانه لمّا ذكرنا أنّه يحبّ الذين آمنوا و متولى ايمانهم و معينهم فى قبول الهداية و مكمل قلوبهم بكمال العرفان المعبّر عنه بالايمان، أراد أن يبيّن كيفية هذا التكميل و الاستكمال ولميّة هذا الفعل و الانفعال، فأشار الى أنّ كيفيته بأن يخرجهم من الظلمات الخلقة الى النور الهداية، حتى اهتدوا و آمنوا، فانّ كلّ واحد من الناس بحسب أصل طينته و هيولانيّته من سنخ الظلمات ـ كالجسميّة ـ و الطبيعة و الحيوانية ـ التى مقتضى ذاتها أفعال توجب الطرد و البعد عن رحمة الله الخاصة الموجبة لدخول الجنّة، و إنّما التفاوت بحسب تفاوت الأرواح و القلوب فى الكدورة و الصفاء الفطريتين، ثمّ بحسب العقائد و الأعمال.

و يجوز أن يحمل قوله تعالى: ﴿و إن منكم إلّا واردها كان على ربّک حتماً مقضياً﴾ (مريم(۱۹): ۷۱)على ما يستوجبه الانسان بحسب ما يقتضيه طينة الجسمانيّة الظلمانيّة.

---

۱. الكافى، ج۸، ص۱۷۷، ح۱۹۷

و يحتمل أن يأوّل الظلمات بالأوصاف النفسانيّة كالشهوة و الغضب و الوهم قبل أن يسخرها القلب و يستعملها فيما خلقت لأجله، و يستخدمها فى طاعة الله على وجه التعديل و التوسيط، فانّ وجودها لا على وجه المذكور ظلمة و وبال على النفس الآدميّة توجب لها الاستحقاق لعذاب الله بالجحيم و النار و الموت و الحرمان عن نعيم الأبرار، كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً﴾ (الأنعام(۶): ۱۲۲).

فثبت أنّه تعالى أخرجهم ذلک اليوم باصابة رشاشة النور ـ كما ذكر فى الحديث المشهور[۱] ـ من ظلمات الطينة حتى اهتدوا اليوم فآمنوا، و لولا محبّته إيّاهم و تنويره قلوبهم و مزيد العناية و توليته لهم بالنصرة و المعنويّة فضلا منه و رحمة لمّا آمنوا و كانوا من الكافرين، كقوله تعالى: ﴿و لولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسرين﴾ (البقرة(۲): ۶۴). و نظائره من الآيات الدالة على مزيد فضل الله لعباده الصالحين.

فما أشدّ سخافة عقل من أنكر مزيد محبّة الله و عنايته للمحبوبين المقرّبين من الأنبياء والمرسلين و الأبدال الواصلين و يرى أنّ التوفيق و الهداية و المحبة من قبله تعالى مساوية النسبة الى أفضل خلق الله و أحبّهم اليه كخاتم المرسلين عليه و آله أفضل صلوات المصلين و أرذل خلقه و أبغضهم لديه ـ كالشيطان اللعين؟! بدون تفاوت ذواتهم فى ابتداء الفطرة بحسب صفاء جوهر القلب و ظلمته و صفائه و كدورته، اللذان هما من مظاهر قهره تعالى و رأفته و آثار مقته و رحمته مرّ كما ذكره.

المعراج الثانى
فى بيان طوائف المؤمنين فى الايمان و كيفية اخراج كلّ طائفة من الظلمة الى النور، و أنّ مراتب الايمان متفاوتة

المؤمنون فيه على ثلاث مراتب لكونهم ثلاث طوائف: عوام المؤمنين و خواصهم، و خواص خواصهم.

فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر و الضلالة الى نور الايمان و الهداية كقوله تعالى: ﴿و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم﴾(محمّد(۴۷): ۱۷).

---

۱. «إنّ الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة، ثمّ رشّ عليهم من نوره»، تفسير ابن كثير، ج۲، ص۱۷۸؛ تفسير ابن عربى، ج۱، ص۷۷.

و الخواص يخرجهم من ظلمات الصفات النفسانية و الجسمانيّة الى نور الروحانية الربانيّة لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾(الرعد(١٣):٢٨)و معرفته و اطمينان القلب بالذكر و المعرفة لم يكن إلّا بعد تصفيته عن الصفات النفسانية و تحليته بالصفات الروحانية، و إلّا فمن صفاته الاطمينان بالحياة الدنيا و شهواتها، كقوله تعالى: ﴿رضوا بالحيوة الدنيا و اطمأنوا بها﴾(يونس(١٠):٧).

فلمّا استولى سلطان المعرفة على نفس المؤمن و قلبه تنورت النفس بنور الذكر و خرجت عن ظلمة صفاتها فتبدلت أخلاقها الذميمة بالحميدة، فيكون اطمينانها مع العلوم الالهيّة و ذكر الله بدل ما كان مع الدنيا، فيستحق حينئذ أن يخرجها الله تعالى بخطاب: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربّك﴾من ظلمات الصفات الغير المرضية الى نور صفة ﴿راضية مرضية فادخلى فى عبادى﴾أى مقام خواص عبادى﴿و ادخلى جنتى﴾(الفجر(٨٩):٢٨) أى المخصوصة المشرفة باضافتها الىّ، فهى خاصة لخواص عبادى.

و خواص الخواص يخرجهم من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بافنائهم عن وجودهم الى نور تجلّى صفة التديم لهم ليبقيهم به، كقوله تعالى: ﴿إنّهم فتية آمنوا بربّهم و زدناهم هدى* و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا﴾(الكهف(١٨):١٣)ـ نسبهم الى الفتوّة لمّا خطروا بأرواحهم فى طلب الحقّ و آمنوا بالله و كفروا بطاغوت دقيانوس.

فلمّا تقربوا الى الله تعالى بقدم الفتوّة، تقرب اليهم بمزيد العناية، قال: ﴿و زدناهم هدى﴾ تحقيقاً لقوله ﷺ: «من قرّبنى شبراً قرّبته ذراعاً».

فلمّا تنوّرت أنفسهم بأنوار أرواحهم اطمأنّت الى ذكر الله و آنست به، و استوحشت عن صحبة أهل الدنيا و ما فيها و أحبوا الخلوة مع الله، فقال أكبرهم و شيخهم: ﴿إذا اعزلتموهم و مايعبدون إلّا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته﴾(الكهف(١٨):١٦) فأووا الى الغار ليخلوا مع الله و يطلبوه.

فاذا قاموا عن وجودهم و بذلوا جهدهم فى طلبه و مشوا اليه استقبلهم بجوده هرولة، فبدّل أوصافهم بألطافه كما قال: ﴿و ربطنا على قلوبهم﴾أى أفنيناهم عنهم بنا بنشر رحمتنا عليهم، و «النشر» هو الاحياء، فأفناهم عنهم و أبقاهم به، و هو الولاية التى تكرّم الله تعالى به خواص عباده، إذ يخرجهم من ظلمات وجودهم الى نور جوده بعد تربيتهم بالرفق، و أنامتهم نومة العروس بعزل الحواس لتصفية القلب و الفراغ بالكليّة الى الحق عن الدنيا لئلّا

تتأذّی نفوسهم بنصب الریاضة و تعب المجاهدة ـ ﴿و نقلّبهم ذات الیمین و ذات الشمال﴾ أی : من صفات أصحاب الشمال الی صفات أصحاب الیمین ، ـ ﴿و کلبهم باسط ذراعیه بالوصید﴾ لایزاحمهم بدواعی الحیوانیّة حتی تمّت مدة تربیتهم فی تبدیل أوصاف البشریة بأخلاق الربوبیة .

و من علامة هذا المقام ـ الذی یصل الیه خلّص عباد الله الکرام ـ ما أظهره الله علیهم للاحترام هیبة من آثار صفات جلاله کما قال سبحانه : ﴿لو اطّلعت علیهم لولّیت منهم فراراً و لملئت منهم رعبا﴾(الکهف(١٨) : ١٨) ، و عداوة علماء الدنیا لأهل الله و العرفاء و غیظهم إنّما تنشأ من غایة ما وجدوا من الهیبة و الجلالة فیهم ، و لهذا ملؤوا منهم غیظاً کما ملؤوا رعباً .

المعراج الثالث
فی اتقان القول بأنّ الله تعالی هو المبدأ الفعّال فی اخراج النفوس الانسانیّة من ظلمات الجهل و الضلال الی نور المعرفة و الکمال ، و دفع شبهة المنکرین و الجهّال

أجمع المفسّرون علی أنّ المراد هاهنا من الظلمات و النور هما الکفر و الایمان و مایجری مجراهما من اللوازم و الملزومات ، فتکون الآیة صریحة فی أنّ الله تعالی هو الذی أخرج الانسان من مرتبة الکفر ـ الذی هو ضرب من الجهل ـ و أدخله الی مرتبة الایمان ـ الذی هو ضرب من العلم ـ .

و البرهان العقلی علیه هو أنّ الانسان فی مبدأ الفطرة خالیة عن العلوم کلّها ، ثمّ قد یصیر مؤمناً بالحقائق الربانیّة ، عالماً بالمعالم الالهیّة ، و لاشک أنّ کلّ مایخرج من القوة الی الفعل بحسب الکمال العلمی فلابدّ له من سبب یخرجه منها الیه ، و ذلک السبب إمّا أن یکون کاملا فی ذاته ، عالماً بالفعل من غیر قصور ، أم لایکون کذلک ، بل کان عالماً کاملا بعد ما لم یکن .

فان کان الأوّل : فهو إمّا واجب أو ممکن ، فان کان واجباً فهو المطلوب و إن کان ممکناً فسببیتّه لتکمیل هذا الانسان إمّا بحسب حقیقة ذاته الممکنة ، أو من جهة افاضة الواجب تعالی نور العلم و الکمال علیه . و الأوّل محال ؛ لأنّ الممکن بحسب ذاته الامکانیّة عدم محض و قوة صرفة ، فاستحال أن یصیر سبباً لوجود أو فعلیة ، فتعیّن الثانی و هو مطلوبنا .

ـ و إن لم يكن كاملا كذلك ينقل الكلام الى سببه المخرج إيّاه من النقص الى الكمال ومن القوة الى الفعل، فامّا أن تذهب السلسلة الى غير النهاية، أو تدور، أو تنتهى الى الواجب تعالى. و الشقّان باطلان، فتعيّن الثالث و هو الحق.

فثبت أنّ الله هو الذى أفاض نور الايمان على النفوس الساذجة الانسانية عنه بحسب الفطرة الأصليّة، و أخرجه عن ظلمات التعلّقات الدنياوية الى نور القرب المعنوى الربانى.

و أمّا ذكره جمع من معتزلة المتكلمين من وجهين:

أحدهما: أنّ الاخراج من الظلمات الى النور عبارة عن نصب الدلايل و ارسال الانبياء و انزال الكتب و الحث و الترغيب فى الايمان بأبلغ الوجوه، و التحذير عن الكفر بأقصى الوجوه، و قد نسب الله الاضلال الى الصنم فى قوله: ﴿ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس﴾ (ابراهيم(١٤): ٣٦) لأجل أنّ للأصنام سببيّة مّا بوجه، فبأن يضاف الاخراج من الظلمات اليه تعالى كان اولى.

و الوجه الثانى: أن يحمل «الاخراج من الظلمات الى النور» على أنّه تعالى يعدل بهم من النار الى الجنة، و هذا أدخل فى الحقيقة؛ لأنّ مايقع من ذلك فى الاخرة يكون من فعله تعالى ـ فكأنّه فعله، فهو مفسوخ الضبط، مقدوح الحكم، و ليت شعرى بعد أن يكون الاخراج عبارة عمّا ذكروه. أفلا يكون بين الناس تفاوت و اختلاف فى المفهوم و القرائح؟ حتى تفطن بعضهم للدلايل و تلقّوها بالقبول، و أوقعت معانيها فى أذهانهم و قرائحم بأبلغ وجه و آكده، بخلاف البعض الاخر حيث تبلدت أذهانهم و تعصّت عن قبولها، كما قال سبحانه فيهم: ﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة﴾ (البقرة(٢): ٧) و كذا قوله: ﴿سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون﴾ (البقرة(٢): ٦)، و قوله مخاطباً للرسول ﷺ ﴿إنّك لاتهدى من أحببت﴾ (القصص(٢٨): ٥٦).

فهذا التفاوت فى الفهم و الذكاء بين النفوس على هذه الغاية ـ التى هى أزيد ممّا بين الأرض و السماء، حيث يكون منهم البليد الذى لاأفلح أبداً فى فكره، و منهم شديد الحدس قوى الذكاء الى حيث تبلغ نفساً قدسيّة تعرف الأشياء كما هى فى زمان قليل العدد، أيكون حاصلا بمجرّد التعلّم و الكسب من غير تفاوت فى أصل فطرة الجواهر؟ أم بفيض الهى قدرى يجعل النفوس مختلفة الذوات صفاءاً و كدورة، متفاوتة القلوب لطافة و كثافة، ليناً و قساوة؟

لست أشك فى أنّ أحداً من العقلاء لاينكر هذا التفاوت الفطرى ضميراً و اعتقاداً. و إن

عاند لساناً و قولا ، فاذا بطل أن يكون ذلک بمجرّد الكسب من غير مدخل لعناية الله فی حق البعض دون الاخر فقد ثبت أنّه تعالی هو الذی خلق الظلمات و النور ، و الجنة و النار ، و خلق لكلّ منهما أهلا كما قال : ﴿هو الذی خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن﴾ (التغابن(۶۴) : ۲) .

فاذا تحقّق هذا المقام بما ذكرناه من الكلام فلنشتغل بحل ما عقدوه ، و الجواب عما ذكروه أمّا عن الأوّل فمن وجهين :

أحدهما : أنّ هذه الاضافة حقيقة فی الفعل و مجاز فی الحث و الترغيب ، و الأصل حمل اللفظ علی الحقيقة ، علی أنّ جواز اطلاق اللفظ فی معنی لايقتضی ثبوت ذلک المعنی ، فلايصح التعويل عليه فی المقاصد الاعتقاديّة ، و قد اشتهر بين المحصلين ان الحقايق غير مقتنصة من الاطلاقات اللغوية أو العرفية .

و ثانيهما : أنّ هذه الترغيبات إن كانت مؤثرة فی ترجيح الداعية صار الراجح و اجباً و المرجوح ممتنعاً ، و حينئذ يبطل قولكم ، و إن لم يكن أثر فی الترجيح لم يصح تسميتها بالاخراج .

و أمّا عن الثانی فمن وجهين ايضاً :

الأوّل : قال الواقدی : «كلّ ما كان فی القرآن من الظلمات و النور فانّه أراد به الكفر والايمان ، غير قوله تعالی فی سورة الانعام : ﴿و جعل الظلمات و النور﴾ (الأنعام(۶) : ۱) ، فانّه يعنی به الليل و النهار . قال : و جعل «الكفر» ظلمة ؛ لأنّه كالظلمة فی المنع من الادراک و جعل الايمان نورا ؛ لأنّه كالسبب فی حصول الادراک .[۱]

و الثانی : أنّ العدول بالمؤمن من النار الی الجنة أمر واجب علی الله تعالی عندكم فلايجوز حمل اللفظ عليه .

المعراج الرابع
فی ازاحة وهم من يحض الآية بمن كان كافراً حيناً من الدهر ثمّ أسلم

إنّ ظاهر لفظ ﴿يخرجهم من الظلمات الی النور﴾ اقتضی أنّهم كانوا فی الكفر ، ثمّ أخرجهم الله من ذلک الكفر الذی عليه فی حصة من الزمان الی الايمان ، قال جماعة من

۱ . تفسير الرازی ، ج۷ ، ص۲۰ ؛ تفسير الثعلبی ، ج۲ ، ص۲۳۷

المفسرين: «إنّ الاية مختصة بمن كانوا من الكافرين ثمّ قبلوا دعوة الاسلام» و هم ذكروا فى سبب النزول روايات:

احداها: قال مجاهد: «هذه الاية نزلت فى قوم آمنوا بعيسى عليه السلام و قوم كفروا به، فلمّا بعث الله محمداً صلى الله عليه و آله آمن به من كفر بعيسى عليه السلام، و كفر به من آمن بعيسى عليه السلام».

و ثانيتها: أنّ الاية نزلت فى قوم آمنوا بعيسى عليه السلام على طريقه النصارى، ثمّ آمنوا بعده بمحمد صلى الله عليه و آله فكان ايمانهم بعيسى عليه السلام حين آمنوا به ظلماً و كفراً؛ لأنّ القول بالاتحاد كفر، و الله تعالى أخرجهم من تلك الظلمات الى نور الاسلام.

و ثالثتها: أنّ الاية نزلت فى كلّ كافر أسلم بمحمد صلى الله عليه و آله. و هذا التخصيص غير لازم، بل الأولى أن يحمل اللفظ على كلّ من آمن بالله و بمحمد صلى الله عليه و آله و بماجاء به ـ سواء كان ذلك الايمان بعد الكفر بعدية زمانية أو لم يكن ـ و تقريره حسبما أشرنا اليه أنّه لايبعد أن يقال: «يخرجهم من النور الى الظلمات» و إن لم يكونوا فيها ألبتة، و يدل على هذا الجواز النقل و العقل:

أمّا النقل؛ فيدلّ عليه القرآن و الخبر و العرف.

أمّا القرآن؛ فقوله تعالى: ﴿و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾(آل عمران(٣): ١٠٣) و معلوم أنّهم لم يكونوا قطّ فى النار، و قوله: ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى﴾ (يونس(١٠): ٩٦)و ما كان نزل بهم عذاب ألبتّة، و قال فى قصة يوسف عليه السلام: ﴿تركت ملة قوم لايؤمنون بالله﴾(يوسف(١٢): ٣٧) و لم يكن فيها قطّ، و قال: ﴿و منهم من يرد الى أرذل العمر﴾ (النحل(١٦): ٧٠)، و ما كانوا فيه قطّ.

و أمّا الخبر: فروى أنّه صلى الله عليه و آله سمع انساناً قال: «أشهد أن لا إله إلّا الله» فقال: «على الفطرة» فلمّا قال: «أشهد أنّ محمداً رسول الله» فقال: خرج من النار». و معلومه أنّه لم يكن فيها.

و روى ايضاً أنّه صلى الله عليه و آله أقبل أصحابه فقال: «تتهافتون فى النار تهافت الجراد، و هاأنا آخذ بحجزكم». و معلوم أنّهم ما كانوا متهافتين فى النار.

و أمّا العرف؛ فهو أنّ الأب أنفق كلّ ماله، فالابن قد يقول له: «قد أخرجتنى من مالك» اى: لم تجعل لى فيه شيئاً، لا أنّه كان فيه فأخرجه منه.

و أمّا العقل فالتحقيق فيه كما مران الانسان و ان لم يكن فى النار ظاهراً و لم يكن كافراً قطّ إلّا أنّه كانت نفسه فى أولّ الفطرة ناقصة فى معنى الانسانية، خالية عن الكمالات العلميّة

و العمليّة، و مع ذلک مشارک للحيوانات فی الأغراض الشهوية و الغضبية، بل أنزل رتبة و أضل سبيلا منها فی الدواعی النفسانية، و الميل الی الدنيا و الاخلاد الی الأرض، فان بقی علی هذه الحالة التی هی بعينها سبب دخول الجحيم و غضب الجبار، أو نفسها ـ كما هو عند بعض ـ فكان علی شفير جهنم، فاذا تنوّرت ذاته بالايمان اليقينی و المعارف اليمانية و العمل بمقتضاها فقد حصل له ما هو سبب دخول الجنان و مجاورة الرحمن أو عينها ـ كما هو عندهم ـ.

فمعنی هذه الآية و غيرها من النقول المذكورة هو ماذكرنا، فانّ العبد لوخلیّ ساعة من توفيق الله تعالی لوقع فی الظلمات ممّا توجبه الشهوات و غيرها، فصار امداد لطفه و افاضة نوره آناً فآناً سبباً لدفع تلک الظلمات عنه، و بين الدفع و بين الرفع مشابهة، فبهذا الطريق يجوز استعمال الاخراج و الابعاد فی معنی الدفع و الرفع.

المقالة الثامنة عشرة
فی قوله سبحانه و تعالی: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الی الظلمات﴾

و فيه مطالع:

المطلع الأول
فی اللفظ

«الطاغوت» بلفظ الواحد والأولياء بلفظ الجمع، ليعلم أنّ الولاء والمحبة من قبل الكفار للطاغوت لا من قبله لهم، فلو كان من قبله لقال: «وليّهم الطاغوت» أو «الطاغوت وليّهم» وأمّا ما قرأه الحسن «أولياؤهم الطواغيت» واحتجّ بقوله تعالی بعده ﴿يخرجونهم من الظلمات الی النور﴾، فهو اسناد مخالف للمصاحف، علی أنّه قد مرّ أنّ هذا اللفظ مفرد لا يجمع، و لهذا يقع فی موضع الجمع.

ومن الدلائل علی ماحملناه ـ من كون الأولياء بمعنی المبنی للمفعول بعد كون الطاغوت بمعنی الشيطان ـ قوله تعالی: ﴿ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾ (البقرة(٢): ١٦٨) وقوله: ﴿إنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (فاطر(٣٥): ٦)، فانّ كونه عدواً للانسان جملة ينافی صيرورته ولياً و لو فی بعض الأوقات.